على واحد منهما كما في قوله عز من قائل فأما الذين في قلوبهم زيغ الخ قال سيبويه أما زيد فذاهب
معناه مهما يكن من شيء فهو ذاهب لا محالة وأنه منه عزيمة وكان الأصل دخول الفاء على
الجملة لأنها الجزاء لكن كرهوا إيلاءها حرف الشرط فأدخلوها الخبر وعوض المبتدأ
عن الشرط لفظا والمراد بالموصول فريق المؤمنين المعهودين كما أن المراد بالموصول الثاني
فريق الكفرة لا من يؤمن بضرب المثل ويكفر به لاختلال المعنى أي فأما المؤمنين
كسائر ما ورد منه تعالى والحق هو الثابت الذي يحق ثبوته لا محالة
بحيث لا سبيل للعقل إلى إنكاره لا الثابت مطلقا واللام للدلالة على أنه مشهود له بالحقية
وأن له حكما ومصالح ومن لابتداء الغاية المجازية وعاملها محذوف وقع حالا من الضمير
المستكن في الحق أو من الضمير العائد إلى المثل أو إلى ضربه أي كائنا وصادرا من ربهم والتعرض
لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتشريفهم وللإيذان بأن ضرب المثل تربية لهم
وإرشاد إلى ما يوصلهم إلى كمالهم اللائق بهم والجملة سادة مسد مفعولي يعلمون عند الجمهور
ومسد مفعوله الأول والثاني محذوف عند الأخفش أي فيعلمون حقيته ثابتة ولعل الا
كتفاء بحكاية علمهم المذكور عن حكاية اعترافهم بموجبه كما في قوله تعالى والراسخون في العلم يقولون
آمنا به كل من عند ربنا لأنه إشعار بقوة ما بينهما من التلازم وظهوره الغني عن الذكر
ممن حكيت أقوالهم وأحوالهم
فيقولون على لا يعلمون حسبما يقتضيه ظاهر قرينه دلالة على كمال غلوهم في الكفر وترامهم
في العتو فإن مجرد عدم العلم بحقيته ليس بمثابة إنكارها والاستهزاء به صريحا تمهيدا
لتعداد ما نعى عليهم في تضاعيف الجواب من الضلال والفسق ونقض العهد وغير ذلك من
شنائعهم المترتبة على قولهم المذكور على أن عدم العلم بحقيته لا يعم جميعهم فإن منهم من
يعلمها وإنما يقول ما يقول مكابرة وعنادا وحمله على عدم الإذعان والقبول الشامل للجهل
والعناد تعسف ظاهر هذا وقد قيل كان من حقه وأما الذين كفروا فلا يعلمون ليطابق قرينه
ويقابل قسيمه لكن لما كان قولهم هذا دليلا واضحا على جهلهم عدل إليه على سبيل الكناية ليكون
كالبرهان عليه فتأمل وكن على الحق المبين وماذا إما متوصلة من كلمة استفهام وقعت مبتدأ
خبره ذا بمعنى الذي وصلته التي ما بعده والعائد محذوف فالأحسن أن يجيء جوابه مرفوعا
وإما منزلة اسم واحد بمعنى أي شيء فالأحسن في جوابه النصب والإرادة نزوع
النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها عليه أو القوة التي هي مبدؤه والأول مع الفعل والثاني
قبله وكلاهما لا يتصور في حقه تعالى ولذلك اختلفوا في إرادته عز وجل فقيل إرادته تعالى لأفعاله

كونه

كونه غير ساه ولا مكره ولأفعال غيره أمره بها فلا يكون المعاصي بإرادته تعالى وقيل هي علمه باشتمال
الأمر على النظام الأكمل والوجه الأصلح فإنه يدعو القادر إلى تحصيله والحق أنها عبارة عن
ترجيح أحد طرفي المقدور على الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه أو معنى يوجبه وهي أعم من
الاختيار فإنه ترجيح مع تفضيل وفي كلمة هذا تحقير للمشار إليه واسترذال له ومثلا نصب
على التمييز أو الحال كما في قوله تعالى هذه ناقة الله لكم آية وليس مرادهم بهذه العظيمة استفهام حكمة
في ضرب المثل ولا القدح في اشتماله على الفائدة مع اعترافهم بصدوره عنه عز وجل بل غرضهم
التنبيه بادعاء أنه من الدناءة والحقارة بحيث لا يليق بأن يتعلق به أمر من الأمور الداخلة
تحت إرادته تعالى على استحالة أن يكون ضرب المثل من عنده تعالى سبحانه فقوله عز من قائل
جواب عن تلك المقالة الباطلة ورد لها ببيان أنه مشتمل على حكمة جليلة
وغاية جميلة هي كونه ذريعة إلى هداية المستعدين للهداية وإضلال المنهمكين في الغواية فوضع الفعلين
موضع الفعل الواقع في الاستفهام مبالغة في الدلالة على تحققهما فإن إرادتهما دون وقوعهما
بالفعل وتجافيا عن نظم الإضلال مع الهداية في سلك الإرادة لإيهامه تساويهما في تعلقها
وليس كذلك فإن المراد بالذات من ضرب المثل هو التذكير والاهتداء كما ينبئ عنه قوله تعالى و
تلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ونظائره وأما الإضلال فهو أمر عارض مترتب
على سوء اختيارهم وإيثار صيغة الاستقبال إيذانا بالتجدد والاستمرار وقيل وضع الفعلين
موضع مصدريهما كأنه قيل إرادة إضلال كثير وهداية كثير وقدم الإضلال على الهداية مع
تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب
أمرا فظيعا يسوؤهم ويفت في أعضادهم وهو السر في تخصيص هذه الفائدة بالذكر وقيل
هو بيان للجملتين المصدرتين بأما وتسجيل بأن العلم بكونه حقا هدى وأن الجهل بوجه إيراده
والإنكار لحسن مورده ضلال وفسق وكثرة كل فريق إنما هي بالنظر إلى أنفسهم لا
بالقياس إلى مقابليهم فلا يقدح في ذلك أقلية أهل الهدى بالنسبة إلى أهل الضلال
حسبما ينطق به قوله تعالى وقليل من عبادي الشكور ونحو ذلك واعتبار كثرتهم الذاتية دون
قلتهم الإضافية لتكميل فائدة ضرب المثل وتكثيرها ويجوز أن يراد في الأولين الكثرة من حيث
العدد وفي الآخرين من حيث الفضل والشرف كما في قوله إن الكرام كثير في البلاد وإن
قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا وإسناد الضلال أي خلق الضلال إليه سبحانه مبني على أن جميع
الأشياء مخلوقة له تعالى وإن كانت أفعال العباد من حيث الكسب مستندة إليهم وجعله
من قبيل إسناد الفعل إلى سببه يأباه التصريح بالسبب وقرئ يضل به كثير ويهدى به كثير

Copyright © King Saud University